الإنسان بين الذات والمكان والآخر

غسان مراد

تتشعّب في هذا العدد التخصّصات، ولكن إذا ما أردنا أن نتطلّع إلى ما يجمعها (وهذه طبيعة مقدّمة "المقدمة" إذا جاز التعبير الذي اعتدنا كتابتها) يطرح مجموعة من الأسئلة الجديدة حول تداخل المعرفة ضمن مجالات العلوم الإنسانيّة. فالمعرفة، انطلاقًا من النصوص الواردة فيه، تعالج بمجملها كيفية فهم الإنسان وإنسانيته، لا بوصفه موضوعًا للتخصّص بل بوصفه نقطة تقاطع بين الذات الإنسانية، موضوع علم النفس، والمكان الجغرافي، واللغة الأدبيّة وكيفية تحليل نصوصها، والعلاقات الاجتماعيّة كمجال للعلوم الاجتماعية.

فلفهم الإنسان من خلال الملاحظة العلميّة بات من الصعب رؤيته بعدسة واحدة، إذ ليس من قدرة التخصّصات المنفردة الإحاطة بتعقيداته المتعدّدة. لهذا من المفترض بنا إعادة بناء أدواتنا المعرفيّة، وتفكيك الحدود المعرفية المصطنعة التي تفصل بينها (الجغرافيا، وعلم النفس، والأدب، وعلم الاجتماع). فالتركيبة لنواة الإنسان لا يمكن أن تقسم إلى خرائط، وانفعالات، وسرديّات، وبنى اجتماعيّة، من دون أن يفقد بذلك جوهره المركب بخاصّة في ظل التحولات والتعقيدات التي تفرضها علينا التطبيقات الرقمية والتي بدورها تسهم في تغيير سلوكية الأفراد وإنسانيتهم من جهة، كما غيّرت من الأدوات التي تساعد على فهم الإنسان من جهة ثانية؛ فعلم النفس على الرغم من التطورات في السنوات الأخيرة في مجال علم النفس العصبي (الذي يرتكز على العلاقات العصبية وتفاعل الهورمونات داخل الدماغ) يعدّ أن الذات كائن لغويّ واجتماعيّ. ويشهد على ذلك من كانوا علماء لغة وتحولوا إلى علماء نفس كجوليا كريستفا مثلاً. فالوعي واللاوعي تحديداً ليسا بنظرها، ونظر لاكان أيضًا، خزاناً للرغبات المكبوتة بل هو بنية لغويّة تفكك كما

نفكك النص. والذات الإنسانية هي نتاج تمثّلات ذهنية ورموز تعبيرية ترتبط بالجماعة والسلطة والهوية لذلك فإنّها تستعير أدوات تحليل من الأدب والجغرافيا وعلم الاجتماع.

والجغرافيا لا تعمل فقط على رسم الحدود ودراسة التضاريس وقياس المسافات، بل هي أيضًا مسؤولة عن تفكيك الفضاءات الثقافية التي تتعلّق بالمكان، الذي بات مشحوناً بالسلطة والذاكرة والهوية. والمكان ليس محايداً، فهو يحدّد الانتماء ويسهم في تشكيل الذات وتمثّلها من خلال علاقتها وارتباطها بالمحيط. فالجغرافيا الثقافية تحاور كافة العلوم وتستعير من الأدب (أدب الرحلات مثلاً) وتشبك مع علم الاجتماع. فالمكان هو من يسكنه ومن يرويه وأهمية الأمكنة بناسها.

أما الأدب بالإضافة إلى الإبداع الجمالي، فهو يُقرأ بوصفه خطابًا ثقافيًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا. والكتابة هي مختبر للذات الإنسانية، فالنّص هو الكاتب، والكاتب هو تاريخ وجغرافيا وانتماء...

وبالنسبة إلى العلوم الاجتماعية فقد باتت منفتحة أكثر على اللغة من خلال تحليل الخطاب والتمثّل الرمزي والهوية السردية (حسب بول ريكور) والحساب. وهي تُفهم أيضا من خلال القصص التي تُروى واللغة التي تستخدم والفضاءات التي تتحرّك فيها. فالعلاقة بين التخصّصات المتعدّدة أصبحت ضرورة لفهم الديناميات الاجتماعية المعاصرة التي تتجاوز الأطر التفسيرية التقليدية.

هذا العدد، كما باقي أعداد المجلة التي تجمع أكثر من ١٠ مجالات معرفية في العلوم الإنسانيّة تدعو إلى إعادة التفكير في بنية التخصّصات الأكاديميّة نفسها، وفي الطريقة التي تُدرّس بها، وتُمارس، وتُنتج من خلالها المعرفة. فالمعرفة لم تعد مشروعًا فرديًّا، بل أصبحت مشروعًا جماعيًّا، يتطلّب الإصغاء المتبادل، والانفتاح على الآخر المعرفي، والقدرة على بناء جسور بين الحقول المختلفة.

ففي زمن تتسارع فيه التحولات المعرفيّة والتقنية، وتتشابك فيه الظواهر الإنسانيّة على نحو غير مسبوق، لم يعد من الممكن الإبقاء على الحدود الصارمة بين التخصّصات الأكاديميّة. فالمقاربات باتت هجينة تتداخل فيها الحقول المعرفيّة لتواكب فهم إنسان العصر الرقمية.

عطفاً على كل ما ورد، يتناول البحث الأول تجربة طلاب علم النفس في الجامعة اللبنانية خلال الستينيات والسبعينيات مع مؤلفات فرويد، ويتوسّع في عرض مسار الفرويدية وصولًا إلى لاكان. ينطلق من كتاب "تفسير الأحلام" الذي مثّل مدخلًا أساسيًّا لفهم مفاهيم مثل الوعي واللاوعي والكبت وتأويل الأحلام الذي استند فرويد في جزء كبير منه إلى أحلامه الشخصيّة، مقدّمًا بذلك نموذجًا للتحليل الذاتيّ. ويتجلّى الهدف من هذه المؤلفات إتاحة أدوات للطالب والقارئ كي يفهم آلياته النفسيّة الخاصة، ويختبر التحليل الذاتي بدرجة من التحرّر من نوازع مكبوتة.

يطرح البحث أسئلة حول مدى واقعيّة النظريآّت الفرويديّة وإمكانية التحقّق منها في التجربة اليوميّة. من هنا يبرز انتقال فرويد من نظرية الإغواء – التي كانت تعزو العصاب إلى اعتداءات جنسية مبكرة – إلى عقدة أوديب التي جعلها لاحقًا ركنًا لا يُستغنى عنه في التحليل النفسيّ.

أما البحث الثاني فهو يركّز على إحدى المراحل التي نفّذت الجامعة اللبنانية حفريات أثريّة في موقع جبيل/بيبلوس خلال عامي ٢٠١٥ و٢٠١٦، والتي أسفرت عن كشف جدار تحصينيّ، تمّ تحديده على أنّه منحدر دفاعي (Glacis) يعود إلى العصر البرونزي. هدفت هذه المهمّة إلى تحليل مراحل بناء بعض أقسام القلعة الوسطى، وإعادة تقييم التدخّلات السابقة منذ البحوث الأولى التي أجراها إرنست رينان في القرن التاسع عشر. تكشف التحاليل الأوّلية للفخار المرتبط بالبنى العائدة إلى العصر البرونزي عن مرحلتين متميزتين من الاستيطان: العصر الحجري النحاسي / البرونزي القديم الأول، والعصر البرونزي القديم الثاني والثالث. إنّ معظم الفخار هو من الإنتاج المحليّ، ويظهر تصنيفه النمطيّ تشابهات أسلوبيّة ملحوظة مع مجموعات فخاريّة مماثلة تمّ العثور عليها في مواقع أثرية أخرى في لبنان.

وتهدف الدراسة الثالثة إلى الكشف عن الإمكانات اللغوية في علوم العربية للنموذج اللغوي "جيمس" (LLM)، والذي يعدّ أول تطبيقة عربية للذكاء الاصطناعي. يأتي ذلك من خلال توجيه الباحث مجموعة من الأسئلة

النّظرية والتّطبيقية للوقوف على مواطن القوة عند جيس؛ لدعمها وتقويتها، أو مواطن الضعف لمعرفتها. وحلّلت الإجابات وفق معايير اعتمدها الباحث بعد إرسالها إلى محكّمين، وقوّم المحكمون إجابة جيس وفق المعايير المعتمدة.

وتنطلق الدّراسة الرابعة من ضرورة تحديث المقاربات الأدبيّة وتنمية الحسّ النّقديّ والعلميّ عند المتعلّم النّاشئ، وتدريبه على التّحليل والتّأويل والتّفكير، خصوصًا أنّ النّصّ يحمل في أحد معانيه معنى الارتفاع والارتقاء... وقد جرى البحث من خلال مقاربات تطبيقيّة على ثلاثة نصوص للكاتب السّوريّ "زكريا تامر". وانطلاقاً من أنّ السواحل الطبيعية تتميّز بهندسة معقدة وغير منتظمة، ويشكل تحدياً لطرق القياس التقليدية، إذ يتغيّر طولها باختلاف مقياس القياس، وبما أنّ علم الهندسة الكسرية يقدم إطاراً منهجياً متطوّراً لقياس هذه الانحرافات من خلال مفهوم البعد الكسري، ومع أن السواحل العالمية قد حظيت بدراسات معمّقة، لم يخضع لها الساحل اللبنانيّ، تسعى هذه الدراسة إلى سدّ هذه الفجوة باستخدام صور الأقمار الصناعية من نوع Sentinel-2 وتقنيات نظم المعلومات الجغرافية، حيث استخدم مؤشر NDVI لتحديد حدود الساحل بدقة.

وضمن قراءة في كتاب، نستعرض في هذا العدد قراءة في كتاب الفكر الغربي الحديث: سيكولوجية الجماهير، لغوستاف لو بون (Gustave Le Bon) (١٨٤١ -١٩٣١)، الذي ترجمه الكاتب السّوري هاشم صالح في العام ١٩٩١. ويُستعرض في هذه القراءة أبرز الأفكار الواردة في كلّ قسم من الكتاب: "روح الجماهير " و"آراء الجماهير وعقائدها" و"تصنيف الفئات المختلفة من الجماهير ودراستها".